بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلَام

- ٢٢ -

سَعْدُ بنُ الرَّبِيع

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّـهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِـهِ وَصَحْبِـهِ أَجْمَعِينَ وَبَعْـد،

فَإِنَّ حَادِثَةً وَاحِدَةً قَدْ تُخَلِّدُ ذِكْرَى رَجُلٍ مَدَى الدَّهْرِ، وَإِنَّ قِصَّةً فِيهَا عِبْرَةٌ لَيَرْوِيهَا جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ، وَإِنَّ قَصِيدَةً فِيها حِكْمَةٌ لَتُرَدِّدُهَا أَلْسِنَةُ البَشَرِ عَلَى مرِّ السِّنِينَ، وَإِنَّ الكَلاَمَ العَذْبَ المُنَظَّمَ لَيَرْفَعُ قَوْماً وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، وَيُكْسِبُ أُنَاساً صِفَةً لَيْسَتْ مِنْ طَبْعِهِمْ، وَيُعْطِي غَيْرَهُمْ سِمَةً هُمْ أَعْلَى مِنْهَا وَعَلَى تَنَاقُضٍ مَعَهَا. فَمَا خَلَّدَ ذِكْرَى مَالِكِ بنِ الرَّيْبِ إِلاَّ قَصِيدَةٌ نُسِبَتْ لَهُ. وَمَا رَفَعَ سَيْفَ الدَّوْلَة إِلاَّ شِعْرُ المُتَنَبِّي وَهُوَ الَّذِي حَطَّ مِنْ شَأْنِ كَافُورَ، وَلِكُلٍّ صِفَةٌ تُخَالِفُ مَا ذَكَرَهُ المُتَنَبِّي. وَمَا مِنْ عَدْلٍ يُعْرَفُ إِلاَّ وَيُقْرَنُ مَعَ ابنِ الخَطَّابِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ، وَيَرْوِي جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ قَوْلَتَهُ «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحرَاراً».

وَمَا ذُكِرَتْ أُخُوَّةٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ إلاَّ وَتَدَاعَى إلَى الذِّهْنِ مُبَاشَرَةً سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَا بُحِثَ فِي الإِخْلاَصِ إلاَّ وَاتَّجَهَ الفِكْرُ إِلَى هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ أَيْضاً. إنَّ لَهُ مَوْقِفَيْنِ كَانَا عُنْوَاناً لَهُ، بَلْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَا شِعَاراً لِكُلِّ مُسْلِمٍ، أَحَدُهُمَا كَانَ يَوْمَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ إِثْرَ اسْتِقْرَارِهِ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرةِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ الثَّانِي قُبَيْلَ إِحْرازِهِ الشَّهَادَةَ يَوْمَ أُحُدٍ بِلَحظَاتٍ. ذَلِكُمَا مَوْقِفَانِ خَالِدَانِ إذَا عُدَّتِ المَوَاقِفُ الخَالِدَةُ كَانَا تَاجاً لَهَا. وَإِذَا بُحِثَتِ المُثُل العُلْيَا اسْتُقِيَتْ مِنْ سَعْدِنَا هَذَا وَكَأَنَّهُ النَّبْعُ لَهَا تَتَدَفَّقُ مِنْهُ وَتَصْدُرُ عَنْهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ أَنْ أُوَفَّقَ بِإِعْطَاءِ فِكْرَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الكَرِيمِ لِيَكُونَ عُنْوَانَ الإِخْلاَصِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُجَنِّبَنَا العَثَرَاتِ، وَأَنْ يُسَدِّدَ خُطَانَا، وَأَنْ يُلْهِمَنَا الصِّدْقَ فِي القَوْلِ، وَالإِخْلاَصَ فِي العَمَلِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

كَانَ سَعْدُ بنُ الـرَّبِيعِ بنِ عَمْـروِ بنِ أَبِـي زُهَيْرٍ مِنْ بَنِـي الحارِثِ بنِ الخَـزْرَجِ أَحَـدِ بُطُـونِ الخَـزْرَجِ ، وَسَيِّداً مِنْ سَادَاتِهِمْ وأَحَدَ الكَتَبَةِ فِيهِمْ، وَالكِتَابَةُ قَلِيلَـةٌ يَوْمَـذَاكَ، وَأُمُّـهُ هُزَيْلَةُ بِنْتُ عِنَبَةَ بنِ عَمْروٍ مِنْ القَبِيلَةِ نَفْسِهَا، وَهِيَ أُمُّ خَارِجَةَ ابنِ زَيْدٍ ابنِ عَمِّ أَبِيهِ وَحَبِيبَةَ بنتِ زَيْدٍ الَّتِي تَزَوَّجَها أَبُـو بكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّتِي أَنْجَبَتْ لَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَعْدٌ وَخَارِجَةُ وَحَبِيبَةُ إِخْوَةٌ لأِمٍّ.

إِنَّ العُقُولَ السَّلِيمَةَ الخَيِّرَةَ تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ بِسُرْعَـةٍ وَتَلْهَفُ إِلَيْهِ، وَتَطْلُبُهُ وَتَدْعُو لَهُ وَتَسْتَنِيرُ بِهُدَاهُ بَيْنَمَـا العُقُـولُ القَـاسِيَةُ تَتَوَقَّفُ عَنْ قُبُولِ الحَقِّ وَتَسُدُّ مَنَافِذَ النُّورِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَتَحْتَجِبُ عَنْهُ وَتَبْقَى مُظْلِمَةً وَفَوْقَ هَذَا تَظَـلُّ مُتَمَسِّكَةً بِالبَاطِـلِ مُتَعَنِّتَـةً بِالْغَيِّ مُدَافِعَةً عَنْ كُلِّ فَسَادٍ. وَلَقَدْ كَانَ عَقْلُ سَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ من النَّوْعِ الأَوَّلِ نَاضِجاً، وَكَانَ كَبِيراً وَاسِعاً، وَفُؤَادُهُ يَهْفُـو

نَحْوَ السُّمُوِّ والإِرْتِقَاءِ، فَمَا أَنْ سَمِعَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلاَمِ فِي مَدِينَتِهِ حَتَّى أَدْرَكَ صَفَاءَهَا وَشَعَرَ بِفِطْرَتِهِ بِصِدْقِهَا وَأَحَسَّ أَنَّهَا مُبْتَغَاهُ فَأَقْبَلَ نَحْوَهَا مُسْلِماً مُسْتَسْلِماً.

وَجَاءَ مَوْسِمُ الحَجِّ وَخَرَجَ سَعْدٌ إِلَيْهِ مَعَ مَنْ خَرَجَ مِنَ المُسْلِمِينَ مَعَ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَوَثَنِيَتِهِمْ فِي عِبَادَةِ الأَصْنَامِ. وَانْطَلَقَ الحَجِيجُ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ هَدَفُهُ وَقَصْدُهُ. وَكَانَتْ نَفْسُ سَعْدٍ تَوَّاقَةً لِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي يَأْتِيهِ النُّورُ مِنَ السَّمَاءِ، وَيَدْعُو إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَإِلَى إِنْقَاذِ البَشَرِيَّةِ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ التَّدَنِّي وَالهُبُوطِ فِي الفِكْرِ، فَلَمْ تُصَدِّقْ نَفْسُهُ تِلْكَ السَّاعَةَ الَّتِي تَلْتَقِي فِيها مَعَ حَامِلِ مِشْعَلِ ذَلِكَ النُّورِ.

فِي العَقَبَةِ:

وَكَانَ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فِي الثُّلْثِ الثَّانِي مِنَ اللَّيْلِ. وَقَدْ نَامَ المُسْلِمُونَ مِنْ حُجَّاجِ يَثْرِبَ مَعَ قَوْمِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجُوا مِنْ رِحَالِهِمْ لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُتَسَلِّلِينَ مُسْتَخْفِينَ حَتَّى اجْتَمَعُوا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ وَعَدَدُهُمْ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَهُمُ

امْرَأَتَانِ. ثُمَّ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ. فتَكَلَّمَ العَبَّاسُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فقَالَ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلاَّ الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَا نِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسَلِّمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَلاَ القُرآنَ، وَدَعَا إِلى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ، ثُمَّ قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيّاً لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزُرَنَا (نِسَاءَنَا)، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ الحُرُوبِ وَأَهْلُ الحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَاعْتَرَضَ القَوْلَ أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا ـ يَعْنِي اليَهُودَ ـ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ

أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ فَتبسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ الدَمَ الدَمَ، وَالْهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ. أَخرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ. فَأَخرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلاثَةً مِنَ الأَوْسِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدَ نُقَبَاءِ الخَزْرَجِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنُّقَبَاءِ: أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءَ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي يَعْنِي المُسْلِمِينَ.

وَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي سَالمِ بنِ عَوْفٍ يَوْمَ التَقَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالْعَقَبَةِ لِلْبَيْعَةِ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتلاً أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوَالِ،

وَقَتْلِ الأشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ خيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأمْوَالِ، وَقَتْلِ الأشْرَافِ؛ فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفَيْنَا بِذَلِكَ؟ قَالَ: الجَنَّةُ. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ. وَكَانَ العَبَّاسُ يَقُولُ ذَلِكَ لِيَشُدَّ العَقْدَ فِي أَعْنَاقِ الأنْصَارِ.

كَانَ سَعْدُبَنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَسْمَعُ هَذَا وَلاَ يَتكَلَّمُ، فَإِنَّ الكَلاَمَ جَمِيلٌ، وَهُوَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتكَلَّمُوا لِيُقَالَ عَنْهُمْ أَنَّهمْ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ، وَلاَ يُحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ، فَفِي الكَلاَمِ مَا يُغْنِيهِ عَنِ الحَدِيثِ، وَلَوْ رَأَى مَا يَسْتَدْعِي إِلَى الكَلاَمِ لَتحَدَّثَ وَأَجَادَ وَسُمِعَ لَهُ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَمِنْ سَادَةِ الخَزْرَجِ وَلِهَذَا كَانَ اخْتِيَارُهُمْ لَهُ بَيْنَ النُّقَبَاءِ.

وَبَعْدَ البَيْعَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَنْ بَايَعَهُ: ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكمْ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ، وَقَدَ شَعَرَ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ وَعِزَّةِ الإِسْلاَمِ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا أَقْوَى مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَى غَداً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ،

وَلَكِنْ ارْجَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَرَجَعُوا إِلَى رِحَالِهِمْ، وَنَامُوا لَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاتَمَّ رَجُلٌ مِنْ حَجِيجِهِمُ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى الشِّرْكِ. وَلَوْ أَحَسَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِمْ لَحَدَثَتْ مُشْكِلاَتٌ، وَتَعَقَّدَ الأمْرُ، وَرُبَّمَا أَصْبَحَ مَا فِي المَدِينَةِ لاَ يَخْتَلِفُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ مِنْ أَذَى الَّذِين أَسْلَمُوا وَاضْطِهَادِهِمْ مِنْ قِبَلِ ذَوِيهِمْ وَعَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ هِجْرَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَهَذِهِ فَائِدَةُ السِّرِّيَّةِ فِي العَمَلِ وَالدَّعْوَةِ لِتَحْقِيقِ مَا يُخَطَّطُ لَهُ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ الأعْدَاءِ، وَتَنْفِيذِ مَا يُرْسَمُ دُونَ عِلْمِ الخُصُومِ.

وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَتْرُكْ أَمْراً يَتِمُّ فِيه طَاعَةُ اللَّهِ دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ إِفْسَادَهُ، فَقَدْ وَسْوَسَ لِقُرَيْشٍ مَا حَدَثَ، فَمَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ حَتَّى جَاءَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الخَزْرَجِ فِي رِحَالِهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنْ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا، أَنْ تَنْشَبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ، فَقَامَ مُشْرِكُو يَثْرِبَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمُوا شَيْئاً. وَأَتَى القُرَشِيُّونَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الأمْرَ جَسِيمٌ،

مَا كَانَ قَوْمِي لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذَا، وَمَا عَلِمْتُهُ كَانَ. فَانْصَرَفَ القُرَشِيُّونَ وَفِي النَّفْسِ شَيْءٌ فَتَقَصَّوْا الخَبَرَ بَعْدَ أَنْ نَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِنىً فَوَجَدُوا الأَمْرَ صَحِيحاً. فَخَرَجُوا فِي طَلَبِ القَوْمِ فَأَدْرَكُوا اثْنَيْنِ هُمَا: سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وَالمُنْذِرُ بنُ عَمْروٍ وَكِلاَهُمَا مِنَ النُّقَبَاءِ، وَقَدْ أُفْلِتَ مِنْهُمُ المُنْذِرُ، وَأَخَذُوا سَعْداً فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَدْخَلُوهُ مَكَّةَ، وَأَوْجَعُوهُ ضَرْباً، فَجَاءَ إِلَيْهِ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ، وَالحَارِثُ بنُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ فَخَلَّصَاهُ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ كَانَ يُجِيرُ لَهُمَا، فَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا رَجَعَ حُجَّاجُ يَثْرِبَ إِلَى مَدِينَتِهِمْ أَظْهَرَ المُسْلِمُونَ مِنْهُمْ إِسْلاَمَهُمْ. وَفِي مَكَّةَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَصْحَابَهُ بِالخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ، وَالهِجْرَةِ إِلَيْهَا، وَاللُّحُوقِ بِإِخْوَانِهِمْ مِنَ الأَنْصَارِ. ثُمَّ أُذِنَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ. فَآخَى بَيْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ عَمِّهِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَبَيْنَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيدِ بنِ حَارِثَةَ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ،

وَآخَى بَيْنَ الزُّبيرِ بن ِ العَوَّام ِ وَعَبْدِ اللَّهِ بن ِ مَسْعُودٍ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ بِلاَلِ بن ِ رَبَاح ٍ وَبَيْنَ عَبْدِاللَّـهِ الخَثْعَمِـيِّ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ مُعَاذِ بن ِ جَبَل ٍ وَجَعْفَر بن ِ أَبِـي طَالِبٍ، وَجَعْفَرُ غَائِبٌ.

كَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبيع ِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَنْتَظِرُ دَوْرَ مُؤَاخَاتِـهِ وَيَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَعَ أَحَدِ الأَنْصَارِ إِخْوَانِهِ وَبَنِي قَوْمِـهِ فَهُـوَ رَغْمَ مَحَبَّتِهِ الشَّدِيدَةِ لَهُمْ وَمَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْض ٍ إِلاَّ أَنَّ كُلَّ وَاحِـدٍ يُحِـبُّ أَنْ تَكُونَ مُؤَاخَاتُـهُ مَعَ المُهَاجِـرِينَ لِمَحَبَّتِهِـمُ الشَّدِيدَةِ لَهُمْ بِصِفَتِهِمْ مِنْ قَوْم ِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنَ السَّابِقِينَ فِي الإِسْلاَم ِ، فَعَسَى أَنْ يَسْتَفِيدُوا أيضـاً مِنْ تَرْبِيَتِهِمْ الَّتِي اسْتَفَادُوهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِقُرْبِهِمْ مِنْهُ، وَعَلَّهُمْ يَحْصُلُوا عَلَى بَعْض ِ العِلْـم ِ مِنَ المُهَاجِرِينَ مِمَّا اقْتَبَسُـوهُ مِنْ رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلِيُظْهِـرَ الأَنْصَـارُ صِدْقَ مَا بَايَعُـوا عَلَيْهِ وَمَـا عَاهَـدُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ. وَلِتَظْهَـرَ قُوَّةُ الإِيمَـانِ وَلِتَظْهَرَ الأُخُوَّةُ الصَّحِيحَةُ الصَّادِقَةُ بَيْنَ المُسْـلِمِينَ. كَمَـا كَانَ يَخْشَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ تَكُونَ مُؤَاخَاتُهُ مَعَ أَحَدِ الغَائِبِينَ مِثْلَ مُعَاذِ بن ِ جَبَل ٍ.

وَلَمَّـا كَانَـتْ مُؤَاخَـاةُ سَعْدِ بـنِ الـرَّبيعِ مَعَ أَحَـدِ سَادَاتِ قُرَيْشٍ وَأَحَدِ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلَامِ وَهُـوَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بـنُ عوفٍ كَادَ يَطِيرُ مِنَ الفَـرَحِ أَوْ لَمْ تَكَدْ نَفْسُـهُ تُصَـدِّقُ مَا تَمَّ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلى دَارِهِ، وَقُـدِّمَ الطَّعَـامُ لَهُمَـا، وَلَـمْ يَعْـرِفْ كَيْفَ يُكْرِمُهُ؟ كيف يُعَامِلُهُ؟ مَا هِيَ الطَّريقةُ المُثْلَى لِلأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي، لِيَ امْرَأَتَانِ وَأَنْتَ أَخِي فِي اللَّهِ لاَ امْرَأَةَ لَكَ فَأَنْزِلُ لَكَ عَنْ إِحْدَاهُمَا فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَحْسَـنُ لَكَ [وَلَـمْ يَكُنِ الحِجَابُ قَدْ ضُرِبَ] فَأَتْرُكُهَا فَإِنِ انْقَضَـتْ عِدَّتُهَـا فَتَزَوَّجْهَـا، وَهُمَـا مُسْلِمَتَـانِ ـ وَلِلَّـهِ الحَمْـدُ ـ وَكُلٌّ مِنْهُمَـا مُسْتَعِدَّةٌ لِلْتَّضْحِيَةِ فِي نَفْسِها وَمَا تَمْلِكُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِرْضَاءِ إِخْوَانِنَا فِي اللَّهِ مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلَيْنَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لا، وَاللَّهِ! وَقَالَ سَعْدُ: هَلُمَّ إِلَى حَدِيقَتِي أُشَاطِرْكَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لاَ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ. فَانْطَلَقَ فَاشْتَرَى سَمْنَاً وَأَقِطَاً وَبَاعَ، وَلَقِيهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فِي أَحَدِ طُرُقَاتِ المَدِينَةِ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَهْيَمْ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى فَشَهِدَهَا سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، وَأَبْلَى فِيها البَلاَءَ الوَاسِعَ، وَلَمْ يَتكَلَّمْ لاَ في المَعْرَكَةِ وَلاَ قَبْلَهَا وَلاَ بَعْدَهَا، يَكِرُّ عَلَى الأعَداءِ صَامِتَاً، وَتَراه بَعْدَ القِتَالِ هَادِئاً.

وَاسْتَدَارَ العَامُ وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ، وَكَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبيعِ بَيْنَ أُسُودِهَا فَانْطَلَقَ بَيْنَ صُفُوفِ المُشْرِكِينَ يَعْمَلُ فِيهِمْ قَتْلاً لاَ يُبَالِي حَتَّى تَنَاوَشَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَسُيُوفُهُمْ وَسَقَطَ صَرِيعَاً بَيْنَهُمْ، وَجَلَسَ يَتَقَلَّبُ على جِرَاحِهِ، ولكنَّهُ لاَ يُفَكِّرُ فِي آلاَمِهِ وَإِنَّمَا يُفَكِّرُ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، صَاحِبَ الدَّعْوَةِ الَّتِي تَتَعَثَّرُ إِنْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ إِذْ لاَ تَزَالُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا، وَسَعْدٌ قَدْ عَاشَ لِلدَّعْوَةِ، وَلاَ يَرَى حَيَاتَهُ إلاَّ لَهَا. وَلَمْ يُفَكِّرْ بِالمَوْتِ إِذْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا شَهَادَةٌ وَهِيَ مَا يَسْعَى لَهُ، وَيُحِبُّ السُّرْعَةَ لِلْوُصُولِ إِلَى الجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ المُتَّقِينَ وَالشُّهَدَاءَ، وَلاَ يُفَكِّرُ فِي أَهْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ. وَيُفَكِّرُ وَهُوَ جَرِيحٌ يُنَازِعُ سَكَرَاتِ المَوْتِ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي الدَّعْوَةِ وَفِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ لاَ يُفَكِّرُ النَّاسُ عَادَةً إلاَّ بِحَالَتِهِمُ الَّتِي هُمْ فِيها وَآلاَمِهِمُ يُقَاسُونَهَا مِنْ جِرَاحِهِمْ، غَيْرَ أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ سَمَتْ فَارْتَفَعَتْ عَنْ دُنْيَاهُ وَرُوحَهُ قَدْ شَفَّتْ فَلَمْ يَعُدْ يَحُسُّ بالآلامِ وَالجِرَاحِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ سَعْدِ بن ِ الرَّبِيعِ ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَطُوفُ بَيْنَ القَتْلَى، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ : مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لآتِيهِ بِخَبَرِكَ، قَالَ: فَاذْهَبْ إِلَيْهِ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ طُعِنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ طَعْنَةً وَأَنْ قَدْ أُنْفِذَتْ مَقَاتِلِي، وَأَخْبِرْ قَوْمَكَ أَنَّهُ لاَ عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحَدُ مِنْهُمْ حَيٌّ. وَمَاتَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ مِنْ جِرَاحَاتِهِ تِلْكَ. وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ أَخُوهُ لأُمِّهِ خَارِجَةُ بنُ زَيْدِ بن ِ أَبِي زُهَيْرٍ فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.

مَاتَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَلَيْس لَهُ سِوَى ابْنَتَيْنِ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ عَمْرَةُ بنتُ حَزْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدٍ قُتِلَ أَبُوهُمَا يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيداً، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا فَاسْتَفَادَهُ فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، وَاللَّهِ لاَ تُنْكَحَانِ إِلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ المِيرَاثِ، فَدَعَا عَمَّهُمَا فَقَالَ لَهُ: اعْطِ ابْنَتَيْ

سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، واعْطِ أُمَّهُمَا الثُمُنَ وَلَكَ مَا بَقِيَ .

هَكَذَا كَانَ حُبُّ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ ، لِلْنَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَكَذَا كَانَتْ نَظْرَتُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا فَدَانَتْ لَهُمْ وَمَلَكُوهَا ، فَعِنْدَمَا تَغَيَّرَتْ تِلْكَ النَّظْرَةُ مَلَكَتْهُمُ الدُّنْيَا واسْتَعْبَدَتْهُمْ فَعَاشُوا فِيهَا عَبِيداً أَذِلاَّءَ .